

النظام الصحي في دولة الأمير عبد القادر (1832-1847)

د/ بن داهة عدة-

أستاذ محاضر بقسم التاريخ- جامعة مصطفى اسطنبولي- بمعسكر-

المعروف عن الأمير عبد القادر أنه كان منشغلا في آن واحد بمقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبالتفكير في بناء صرح دولة جزائرية عصرية ذات قوائم قوية تتكيف مع الاضطرابات والاضطرابات وحالة الحرب التي كانت تعيشها البلاد، وذلك بإنشاء مؤسسات مدنية وعسكرية فعالة، قوية، متماسكة، وغير منشقة (*efficiente, solide, cohérente, et sans fissure*) تعمل على تحقيق السلم وإقرار النظام والانضباط، وتقرض على الشعب سلطة الدولة وهيبتها بإنصاف ونزاهة (*droiture et équité*).

فبعد أن استتب له الأمر كزعيم منتخب من قبل الشعب بطريقة ديمقراطية أنشأ مجلسا للشورى، وهيئات تتولى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والديبلوماسية شبيهة بالوزارات في العصر الحالي تدعى النظارات؛ وسك نقودا باسم الدولة الجزائرية، وأولى رعاية بتعليم الجيل، وشجع على اقتناء الكتب وجمعها وتطهير المجتمع من الآفات الضارة (التدخين - الخمر - الدعارة - لعب الأوراق...) وعمل على إنشاء نظام صحي يكفل للمواطنين السلامة من الأمراض.

ومع أن النظام الصحي في دولة الأمير عبد القادر لم يعالج سوى بعض الكتاب القلائل⁽¹⁾، كما أن حصيلة ما كتبه ينحصر في معلومات جزئية وسطحية، إلا أن هذه القلة القليلة فيها من الإشارة ما يدل أن الأمير عبد القادر كان يفكر في إنشاء نظام صحي عصري في الجزائر،

أو على الأقل عصرة الطرق التقليدية للعلاج من الأمراض في الجزائر، والتخطيط لمدرسة طبية جزائرية مستقلة، ولا ينبغي أن ننسى بأن الأمير قد تولى في أحضان مدرسة القبطنة التي كانت إلى جانب علوم القرآن واللغة العربية تلقن الطلبة دروسا في الطب وعلم الأمراض وأعراضها، (*cours de pathologie*) وكذلك دروسا في علم الفلك... وفي كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل تحدث عن علم الطب وخواص الأدوية، ومن الأمثلة على ذلك «وزن دانق من الأفيون سم قاتل، لأنه يجمد الدم في العروق لقوة برونه»⁽²⁾ مما يدل أنه كانت له بعض المبادئ في علم الطب.

اهتمامات الأمير عبد القادر بإنشاء نظام صحي:

من خلال قراءة متأنية للمادة 24 من القانون - السابع - الخاص بالتنظيم العسكري في دولة الأمير عبد القادر، والتي نُشر نصّها في جريدة «*le Moniteur Algérien*» عام 1844⁽³⁾ يتبين بأن الأمير عبد القادر كان يولي اهتماما بليغا بالنظام الصحي.

فنص هذه المادة يُجسّم في أنماطنا الحالية التي كان عليها النظام الصحي في دولة الأمير عبد

القادر من حيث:

1- وجود مراكز صحية تأوي المرضى وتكفل لهم جميع الحاجيات (الفراش، الطعام، العناية الطبية).

2- إخضاع عملية توظيف المرضى لشروط -أدبية ومادية- (النباهة، الأدب، طلاقة الوجه، اتساع الخاطر) حتى لا تضيق نفوس المرضى بهم.

3- العناية بترقية المستوى المعرفي والمهني للمرضى تحت إشراف الأطباء الجراحين.

4- تأمين الدولة لتكاليف الأطباء والمرضى (اللباس الخاص، الراتب الشهري، التموين بالمواد الغذائية اللازمة...) ⁽⁴⁾ بما يكشف أن الأمير عبد القادر قد جعل من الرعاية الصحية للمواطنين، وفي مقدمتهم المجندين -واجبا مفروضا على الحكومة.

كان الأطباء يرتبون بدلة خاصة من الجوخ الجيد، ويتقاضون مرتبا شهريا ثابتا يساوي اثنتي عشرة ريالاً، (من بيت المال)، إضافة إلى ريع شاة من اللحم (*un quart d'agneau*) كل يوم اثنين وخميس، ورغيفان من الخبز الأبيض أو رطلان من اللبيق كل يوم، وأوقيتان (*onces* 02) من السمّن أو الزيت، وحوالي كيلوغرام ونصف (1,5 كغ) من الخشب يوميا ⁽⁵⁾.

كما كان المرضى هم الآخرون يتقاضون أجرة شهرية من بيت المال تتناسب مع خبرتهم ⁽⁶⁾. أما برينو إيتيان فقد أورد لنا مقالا جاء فيه «أن الأمير عبد القادر كان آمينا لتقاليد الطب الأندلسي، وقد شكل فرقا طبية، ومستوصفات تطبق في كل مكان القاعدة: ورد في الكتب المقدسة أن كل سلطان لا ينشر في الاستشفاء في سلطنته يعتبر عاصيا للخالق» ⁽⁷⁾.

المستشفيات (المراكز الصحية): أنشأ الأمير عبد القادر مستشفى في كل مقاطعة إدارية إضافة إلى مستشفى في بوغار وآخر في الزمالة ⁽⁸⁾، ويؤيد هذا القول ما كتبه محمد بن الأمير عبد القادر في التحفة أن والده قد أحدث ما كان معروفا عند ملوك المغرب، وهو إنشاء المستشفيات (البيمارستانات) لمرضى جنوده في مختلف المقاطعات.

وقد عين الأمير عبد القادر في كل مستشفى أربعة أطباء يرجع أمرهم إلى طبيبه الخاص أبو عبد الله الزروالي، الذي شهد له أهل الخبرة بالمهارة في علم الطب؛ فلم يكن على نمط الأوروبيين في علمه، أو متخرجاً من مدرستهم، يقول عنه صاحب التحفة: «نحن لا نعلم أين تمهر في هذه الصنعة، ولعله إنما وصل إلى ذلك عن طريق الوراثة والتجربة» ⁽⁹⁾.

كان عالما بخواص الأعشاب على اختلاف أصنافها، وكان يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب بوضع تشب على مدخله فيخرج بعد بضع ساعات من موضعه بسهولة دون ألم ⁽¹⁰⁾.

أكد ذلك الفرنسيون الذين زاروا معسكرات الأمير: فكتب توستان دي منوار سنة 1841 أن في جيش الأمير طبيبين بلقب باش جراح (كبير الجراحين) ⁽¹¹⁾.

ونفس هذه الملاحظات تقريباً أبدتها أدريان بيار بروجر الذي زار معسكر الأمير على رأس وفد هام سنة 1837.

حيات (الفرش، الطعام، العناية

أمة، الأدب، طلاقة الوجه،

الأطباء الجراحين.

رتب الشوري، التموين بالمواد

بـ الصحية للمواطنين، وفي

تبا شهريا ثابتا يساوي اثنتي

(un quatr كل يوم اثنين

(onces) من السم أو

ل تتناسب مع خبرتهم⁽⁶⁾.

كان أميناً لتقاليد الطب

في الكتب المقدسة أن كل

كل مقاطعة إدارية، إضافة

الأمير عبد القادر في التحفة

بـمارستانات) لمرضى جنوده

إلى طبيبه الخاص أبو عبد

مط الأوربيين في علمه، أو

في هذه الصنعة، ولعله إنما

صاصة من داخل العضو

بن الم⁽¹⁰⁾

في منوار سنة 1841 أن في

الأمير على رأس وفد هام

وقد تحلث الأوربيون عن بعض هؤلاء الأطباء -الشعبيين-، فالضابط ريتشارد سجل قائمة
بأسمائهم، وقال هم ليسوا من خريجي المدارس، بل كانوا لا يعرفون حتى القراءة والكتابة، وإنما كانوا
يتعلمون بالوراثة، والملاحظة، والتجربة، ولهم ذكاء فطري؛ والأمير عبد القادر نفسه يعترف بأنهم لا
يتمتعون بتعليم عال⁽¹²⁾.

معنى هذا أن الأطباء في دولة الأمير عبد القادر ليسوا متخصصين في مهنتهم، وإنما كانوا
يتمتعون بخبرة كافية تؤهلهم لمعالجة الأمراض غير المعقدة، كتضديد الجروح، وتجبير العظام، وعند
حصول أية مشكلة تتعدى معرفتهم كانوا يستشيرون طبيب العاصمة أبي عبد الله الزروالي.

وللإشارة فقط فإن الفرنسيين قد أنشئوا بالمناطق التي احتلوا في الجزائر سنة 1843 سبعا
وعشرين مركزا صحيا، منها خمسة عشرة مركزا في إقليم الجزائر الوسطى، وخمسة مراكز في إقليم
وهران، وسبعة في إقليم قسنطينة، إلا أن هذه المستشفيات لم تقدم خدمات صحية للجزائريين. ففي سنة
1835 حصد الموت 1500 شخص من بين 10.000 ساكن في مدينة معسكر لوجدها بسبب مرض الكوليرا
(الإسهال)، وهذا بإقرار من الفرنسيين أنفسهم⁽¹³⁾.

كما أنه لم يكن للجزائريين (في الماضي)، مستشفيات عامة أو مشتركة فكانوا يلحقون
بملاجئ في المساجد ينزل بها المرضى والعجزة، وكان لديهم مؤسسات خيرية (الوقف) لرعاية هذه
الأماكن⁽¹⁴⁾.

وقد جد الأمير عبد القادر في هذا المجال وأعطى أمرا للجيش بتوفير الأطباء والجراحين وجميع
وسائل المحافظة على الصحة وتوفير العلاج والراحة للجنود.

وفي خطبته التي ألقاها بعد الهزيمة التي ألحقها بلاموريسيار في ضواحي تاقدمت قال الأمير عبد
القادر: «وصلتني أخبار عن حشود هائلة تحركت نحو حصن سبيلو، وحماتنا استطاعوا صد ذلك
الهجوم، ولكن التفاوت الكبير في العدد والجند أنهك قواهم وبينهم الآن عدد كبير من الجرحى، وعلينا
الآن وبسرعة تفقد الحصن ونأمين احتياجاته، ونقل الجرحى إذا أمكن إلى الزمالة».

يفهم من هذا النص أن الزمالة مدينة الخيم كان بها مستشفى ميداني.

التعليم الطبي في دولة الأمير عبد القادر: في إحدى زياراته الميدانية التي اعتاد الأمير عبد القادر
قيام بها، وذلك رفقة وفد يتألف من القادة العسكريين والعلماء والأطباء زار الأمير المستشفيات في المناطق
التي لازالت تحت سلطته⁽¹⁵⁾، فوقف أمام أطباء أحد المشايخ وأخاطبهم بقوله: «عليكم نقل العلوم الطبية في
معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب» إلى أن يقول لهم
«قد دفعت الأموال الطائلة من موارد مزارع عائلتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب، ومؤلفات نادرة ككتاب
الأنوية المضرة للطبيب العالم أحمد بن محمد الغافقي، ومؤلفات ابن سينا، وابن البيطار، والصوري، وأبو
القاسم الزهرائي»⁽¹⁶⁾، هذا النص الخطابي الموجه للأطباء يكشفنا سندا ودليلا في أن الأمير عبد القادر كان
تتبع الاهتمام بالتعليم الطبي، والحرس على نقل معارفه للطلبة المتفوقين، وهو صرخة جادة ودعوة حارة
للأطباء الجزائريين للعمل بجندية والاعتماد على أنفسهم في تركيب الأعشاب وصنع الأدوية، وكأنه

كان يريد بذلك إنشاء مخابر للبحث الطبي، ووقع به إيمانه الحار بوجوب تعليم علوم الطب إلى التضحية بمال عائلته لمن أجل توفير الكتب الطبية.

ويعترف بير تيراند أنه كان للجزائريين كتب في الطب، ولكن الاحتلال أدى إلى نهبها، فقد كان باي قسنطينة (صالح باي) قد أوقف عدة كتب في الطب على الزوايا مثل المنكرة للساود الأنطاكي وكتاب أحمد زروق الناسي، ولكنها اختفت بعد احتلال المدينة⁽¹⁷⁾.

ومن الكتب الشائعة التي كان الجزائريون يعمدون إليها في مجال الطب والتي كانت كثيرة الانتشار في الجزائر:

- كتاب الطب النبوي.
- الرحمة في الطب والحكمة للسيوطي⁽¹⁸⁾.
- تحفة الأتيب عندما لا يحضر الطبيب لمحمد الجيلاني.
- رسالة في الطب لمحمد العياشي (أبي عبد الله).
- كتاب داود الأنطاكي في الطب (المصري).
- نهاب الكسوف في الطب لعبد الله بن عزور المراكشي⁽¹⁹⁾.

وقد لاحظ الطبيب بير تيراند صاحب كتاب «الطب والنظافة الصحية عند العرب» الذي عمل في مختلف المكتاب العربية بين 1848 - 1853 بأن الطب قد تخلف عند الجزائريين بعد الأمير عبد القادر⁽²⁰⁾، وما يشد انتباه القارئ هنا هو شهادة هذا الطبيب الأجنبي بأن الجزائر في عهد الأمير عبد القادر شهدت نهضة فعلية في مجال الطب.

وقد صمم الأمير عبد القادر على تأسيس مدرسة للطب تشمل جميع الاختصاصات لكن عمر إمارته القصير جداً، وقلة الأموال في خزينتها، حال دون تنفيذ حلمه، ولو أتاحت له الظروف تحقيق ذلك، لكان فعلاً السباق في هذا الميدان في المغرب العربي⁽²¹⁾ فترة البناء والتعمير التي عرفتها البلاد في ظل معاهدة التافنة وكانت قصيرة.

الخدمات الاستشفائية: الطب الشعبي هو الذي كان سائداً، حيث كان الناس يكتفون بالتداوي بالأعشاب وإلى ما سمي بالطب النبوي، وكتابة الآيات القرآنية والحروز واللجوء إلى الدراويش والسحرة الذين كانوا يعالجون بالتمائم والرقى والعزائم؛ هذا لدى عامة الناس.

أما الخاصة والمسؤولون فكان لهم أطباؤهم، فمثلاً: حسين باشا - آخر دايات الجزائر - كان له طبيب خاص من أصل إسباني، وآخر من أصل ألماني، وكان لباي قسنطينة الحاج أحمد باي أيضاً أطباؤه منهم إيطالي، قيل أنه عالجه عدة سنوات ثم كتب له وصفاً لحياته وملا محم⁽²²⁾.

وقد اشتهر الأطباء الشعبيون عصر الأمير عبد القادر في الجزائر بالحجامة، والكي، والختان، وجبر الكسور، وعلاج لدغة العقرب، وعضة الثعبان، وخلع الأسنان. أما المستشفيات التي أنشأها الأمير عبد القادر وأوصى القائمين عليها بالانتشار أمم المريض، واحترامه، وحسن معاملته، فكانت توفر للمريض جميع حاجياته (كما أشير إليه سابقاً).

وقد وظف فيها إلى
الاستبدال والوصلة
من القوات العسكرية
ومن الأمور التي تد
واسبقهم إلى التكلم بهم
الأجانب من أمثال شارل هنري
وعبري السيل، ووجه أخص،
حاجة إلى المساعدة⁽²³⁾.
أما والدة الأمير «لا
السجنيات لاسيما المريضات
والزينة، واللحم، ومواد غذائية
إليها وحنن عليها وحملت
واسعادهن وتوفير الراحة لهن
وقد ذهب الأمير ع
أعدائه المرضى ممن وقعوا في
نموذجاً لهذا التسامح.
لم يكن في استطاع
الفرنسية على إقليم قسنطينة
بايا أو باشا سنة 1838 لإدارة
القادر في الشرق الجزائري با
فألقى عليه البراءة
تعاينة أيام من السير، وقد إذ
ثم يستطيع الوقوف⁽²⁴⁾ فإذ
قارني - ليضمه جراحه، لك
فرحات بن سعيد للطبيب
وعليه عين الأمير
تماماً من جراحه، وص
(NEGRIER)، وعرضه
السجن لمدة سنة واحدة
إن هذا النموذج
ورافقه حتى بالنتين خاتوا

حار يوجب تعليم علوم الطب إلى

الاحتلال أدى إلى نهبها، فقد كان

يا مثل المنكبة لداود الأنطاكي

جال الحلب والتي كانت كثيرة

صحية عند العرب» الذي عمل

ند الجزائريين بعد الأمير عبد

جزائري عهد الأمير عبد القادر

جميع الاختصاصات لكن عمر

حت له الظروف تحقيق ذلك

عرفتها البلاد في ظل معاملة

كان الناس يكتفون بالتداوي

لجوء إلى الدراويش والسحرة

تدايات الجزائر- كان له

حاج أحمد باي أيضا أطباؤه

بالحجامة والكلي والختان،

بالت التي أنشأها الأمير عبد

ملته، فكانت توفر للمريض

العدد الأول

وقد وُظف فيها إلى جانب الأطباء ممرضون تتوفر فيهم شروط منها: المهارة واللياقة وحسن الاستقبال والرصانة (*intelligence, politesse, bonne présentation, calme*)، وكذلك أفراد من القوات العسكرية يضمنون الحراسة والأمن بالمراكز الصحية ويسعفون المرضى.

ومن الأمور التي تدل على أن الأمير عبد القادر كان أولى الناس عناية بالمرضى والجرحى وأسبقهم إلى التكفل بهم، الإنفاق من ماله الخاص عليهم، وهذا ما شهد له به معاصروه والمقربون إليه من الأجانب من أمثال شارل هنري تشرشال «إن الأمير كان ينفق مما استبقي له من المال القليل على الفقراء، وعابري السبيل، ويوجه أخص رفاقه في السلاح ممن جرحوا أثناء المقاومة في الحرب المقدسة والذين هم في حاجة إلى المساعدة»⁽²³⁾.

أما والدة الأمير «الالة الزهرة» فكان يضرب بها المثال في توفيرها الأمن والرعاية الصحية للسجينات لاسيما المريضات منهن، بحيث كانت تقدم لهن بنفسها صباح كل يوم كميات من الزيت والزبدة واللحم، ومواد غذائية مختلفة: وينكر شال هنري تشرشال «أن إحدى السجينات مرضت فضممتها إليها وحنت عليها وحملت لها الشاي والسكر والقهوة، فكانت تعمل بما في وسعها لإسعاف السجينات وساعدهن وتوفير الراحة لهن»⁽²⁴⁾.

وقد ذهب الأمير عبد القادر بسمو أخلاقه وتشبعه بالروح الإنسانية إلى حد التسامح حتى مع أعدائه المرضى ممن وقعوا في الأسر بين يديه؛ ولعل العودة إلى تصرفاته مع فرحات بن سعيد تضع بين أيدينا نموذجا لهذا التسامح.

لم يكن في استطاعة الأمير عبد القادر أن يتغاضى عن فرحات بن سعيد المعترف بالسيادة الفرنسية على إقليم قسنطينة والذي اقترح المارشال فالي على الملك الفرنسي- لويس فيليب الأول- تعيينه باي أو ياشا سنة 1838 لإدارة إقليم قسنطينة مكان أحمد باي، وليضرب به -أيضا- إمتداد نفوذ الأمير عبد القادر في الشرق الجزائري باسم فرنسا⁽²⁵⁾.

فألقي عليه البر كاني خليفة مقاطعة التيطري القبض وسلمه إلى الأمير -بتقديم- بعد ثمانية أيام من السير، وقد انكشطت وتورمت قدماه المربوطتان تحت بطن البغل الذي كان يحمله، بحيث لم يستطيع الوقوف⁽²⁶⁾. فاعتنى به الأمير عبد القادر وكان يبعث إليه يوميا بالطبيب الفرنسي -الدكتور قرتي- ليضمد جراحه، لكن العلاج كان بطيئا بسبب استمرار تصيغ الجراح⁽²⁷⁾ وكذلك بسبب تهديد فرحات بن سعيد للطبيب بخنقه (*étrangler*).

وعليه عين الأمير عبد القادر طبيبا عربيا يتولى علاجه، ولم يمثل أمام المحكمة إلا بعد أن شفي تماما من جراحه، وصار في حالة صحية جيدة؛ ورغم اعترافه بمراسلته مع الجنرال ثيقرسي (*NEGRIER*)، وعرضه لخدماته على فرنسا؛ فإن الأمير عبد القادر خفف عليه الحكم من الإعدام إلى السجن لمدة سنة واحدة⁽²⁸⁾.

إن هذا النموذج يمنحنا فرصة التعرف على سمو أخلاق الأمير عبد القادر وثقافته الإنسانية، وحتى بالنسبة لآثاره الوطن من أبناء هذا الشعب فقد كان التسامح شرعته ومنهاجه.

استعانة الأمير عبد القادر بالأطباء الأجانب

في الميثاقين التاليين نموذج لاستعانة الأمير عبد القادر بأطباء أجانب من بينهم الطبيب الذي كان يقيم في معسكر أثناء الهدنة (1837 - 1838).

المثال الأول: ينكر أن والده الأمير عبد القادر لالة الزهرة قد مرضت ذات مرة في مليانة وهو بعيد عنها ولما سمع بذلك توجه إليها بسرعة فقطع خمسة عشرة كيلو متر في ظرف قياسي ... ويقول عنها الفرنسيون أنها الوحيدة التي لبست الجوارب والقضبان الصوفية البيضاء التي أرسلها إليها الطبيب الفرنسي في معسكر ... بعدما أرسلت تطلب علاجاً من البرد الذي أصابها، وحين وصلت الجوارب والقضبان من الطبيب لبستها بدون تحفظ⁽²⁹⁾.

المثال الثاني: بعثت عائلة الأمير عبد القادر إلى الدكتور فارني للالتحاق فوراً إلى أحد الدواوير (لم ينكر اسمه) ليمنح العلاج للابن الوحيد للأمير عبد القادر الذي كان يحتضر.

وعلى الرغم من خطورة إجراء العملية الطبية، وما قد ينجر عن فشلها من أثر على البعثة الدبلوماسية الفرنسية بمعسكر، وعلى السلم بين الجزائر وفرنسا، فإن الدكتور فارني لم يتردد عن الدعوة التي وجهت إليه، وقطع مسافة الفراسخ الأربعة التي كانت تفصل بين معسكر والخيمة التي كان يوجد فيها المريض على صهوة فرسه.

فابلغ والده المريض بخطورة حالته الصحية، وكأنه يلقي عليها اللوم عن تأخيرها لدعوته، وخال في فكره أنه في حالة موت ابن الأمير عبد القادر بين يديه، فإنه لن يمنع من تهمة تسميمه والتعمد في قتله، فاتخذ جميع الاحتياطات، واستخدم فقط الأدوية الخارجية التي تم تحضيرها من طرف عائلة المريض، وذلك بحضور الحاج الجيلالي مقتصد الأمير عبد القادر وموظفين آخرين، فأجرى له العملية وانصرفه وقد شكرته العائلة على ذلك⁽³⁰⁾.

وبعد ثلاثة أيام تمكن المريض من الوقوف على رجله إلا أن هذا النجاح أعقبه خبر تلقاه الدكتور فارني مفاده أن المريض قد انتكس، فأسرع إليه فوجد حالته الصحية قد ازدادت سوءاً، فنصح الأم بتحويله إلى ميني إدارة القنصلية، فرضت، فانصرفه وبعد اثني عشرة ساعة تراجعت عن قرارها، إلا أن الولد توفى بعد لحظات من وصوله إلى الدواير⁽³¹⁾.

وحتى لا يحرم الجزائريين من الخدمات الإستشفائية للأطباء الأجانب فإن الأمير عبد القادر:

- 1- لم يمنع الجزائريين من زيارة الأطباء الأجانب لأجل تلقي العلاج.
 - 2- سمح للأطباء الأجانب بحرية التنقل في الأراضي الخاضعة لسلطته بحيث أصبح الأطباء النخين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائر يتمتعون بالأمن داخل الوطن الجزائري⁽³²⁾.
- كما أن النداء الذي قدمه الأمير عبد القادر إلى أهل فجيج يستغيث بهم لهُو شاهد صدق على مدى تأثره بمرض الطاعون الذي ضرب بلاد المغرب العربي في سنة 1251هـ/1836م، ومات به كثير من الناس بسبب إصابات الإسهال الحادة (Diarrhée) والقيء، وغُور العيون (enfouement des yeux) ويرودة (شلل) الأعضاء (refroidissement des membres)، حيث قُدر عدد النخين راحوا ضحية

الكوليرا خلال هذه السنة في من مدينة مليانة والمدية، وتلمسان، ومعسكر يعشر السكان، وامتد هذا الطاعون حتى القبائل الصحراوية⁽³³⁾.

وحتى خلفاء الأمير عبد القادر لم يمتنعوا من طلب الإغاثة من الأطباء الأجانب؛ ففي شهر أكتوبر من سنة 1847 طلب خليفة الأمير عبد القادر على الأغواط (محمد الصغير بن عبد الرحمن المعروف أحيانا بأحمد بلحاج: 1841 - 1847) من سلطات الاحتلال الفرنسي طبيباً لعلاج بعض أعضاء وراثة قد أصيبوا بمرض معد في العيون؛ وأبدى الجنرال ماري (MAREY) قائد القسم العسكري للمدية موافقته بإيفاد طبيب إلى المناطق الصحراوية⁽³⁴⁾.

كما أن راية الدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر والتي كانت تحمل صورة كف مسوطة مطرقة بالذهب لها أكثر من دلالة (في اليد الممدودة، الفتوحة، اليد الحامية، التي نجدها في كل مكان ترمز لطرد الأرواح الشريرة وعين الحسود، والجن والعفاريت الخبيثة، تطلربها من الأشخاص والأموال...)⁽³⁵⁾.

أمثلة ونماذج عن الممارسات الطبية:

أمراض العيون: كانت أمراض العيون تعالج عن طريق قطرات تغسل العيون "Les infections, oculaires étaient traitées par des collyres" كما كانت تجري عمليات جراحة على فتيلة

البيض المخورية، وعلى الغشاوة الموجودة على قرينة العين "Ils opéraient les chalazions et même d'écaille d'huître (les taies qu'ils traitaient ensuite avec de la poudre de perles"

ثم يعالجتها عن طريق مسحوق حشرة اللؤلؤة وقشرة أو فوقعة المحار⁽³⁶⁾، كما كانت حبيبات الجفن تعالج عن طريق شريطها بسكين نحيلة ثم يمسح عليها بقطعة من الثوم (Le traitement des granulations de la paupière étaient effilés, puis frottés, rapidement avec une gousse d'ail scarifiées avec un couteau"

للسعة (لسعة) الأفاعي السامة: في حالة لدغة الأفاعي السامة يفتح الجرح بسكين ويمتص الدم من الجرح عن طريق الشم أو بواسطة محجمة (ventouse) ثم تولج كمية من الثوم المسحوق داخل الجرح، تبقى العملية بتضميد الجرح، وفي الصحراء كانت الجراح تضمد بشحم الضب «le (Uromastic) lezard des sables"

لسعة العقرب: لسعة العقرب هي الأخرى كانت تعالج بنفس الطريقة ثم يربط العضو. الأمراض الجلدية: كانت تعالج بواسطة مجموعة من الأنوية «Une panoplie de remèdes» مثل الخبي كان توضع على رأسه قبة (calotte) محشوة بنبات عشبية زراعية (حبة البرية: le pois)

يصف عليها (القبة) ينتزع معها الشعر المصاب. وهناك طريقة لتنظيف الشعر تتم عن طريق تغميس الأصبع في القطران ثم وضعها على الجلد المشعر (chevelu) فيلتصق الشعر بالأصبع ثم ينتزع. ومنها طريقة البترول. بينما الجرب «la gale» فكان يعالج عن طريق مزيج من الزيت أو الزبدة والكبريت أو القطران.

من بينهم الطبيب الذي

ات مرة في مليانة وهو بعيد

فقياسي

لأت الصوفية البيضاء التي

البرد الذي أصابها، وحين

ق فورا إلى أحد اللواوير (لم

من

فشلتها من أثر على البعثة

رفارني لم يتردد عن الدعوة

برو الخيمة التي كان يوجد

يم عن تأخرها لدعوته، وجمال

مة تسميمه والتعمد في قتله،

برها من طرف عائلة المريض،

فأجري له العملية وانصرف

باح أعقبه خبر تلقاه الدكتور

بات سوعا، فنصح الأم بتحويله

من قراها، إلا أن الولد توفي بعد

جانب فإن الأمير عبد القادر:

ته بحيث أصبح الأطباء الذين

ن الجزائري⁽³²⁾

قيت بهم فهو شاهد صدق على

له/ 1836م ومات به كثير من

(enfouissement des yeux)

ثقل عند الذين راحوا ضحية

6. طب الأسنان والضم: عملية نزع الأسنان كانت تمارس في الأرياف من قبل أطباء - حكماء (guérisseurs) جوالين؛ وفي المدينة من قبل الحلاقين والحجامين والختانين (barbiers) عن طريق استخدام المحجمة (ventouse) أو الختان (circoncision)، وكانت الأسنان تقلع بواسطة كلابه الأسنان (Duvier)، وأمراض الفم كانت تعالج بواسطة الماء الممزوج بالخل أو الملح.

كما كانت تستخدم مواد عطرية لإزالة الروائح الكريهة من الفم، منها الكزبر (coriandre) الصندل (santal)، الكافور (camphre)، الغريبند (pyrethre)، جنود الجوز (racine de noyer) وعود النخل الهندي (le bois d'arek).

6- مرض السفيليس: كان يعالج عن طريق القشع (من فصيلة الزنبقيات) (la salsepareille) والتعقيم ببخار أو دخان الزنجفر (سولفور الزئبق الطبيعي) (les fumigations de cinabre).

7- مرض المفاصل: يتم علاجه بالدريليس (le thapsia).

8- أورام الفم: (les lésions de la bouche) والعيون بالشب (l'ahn) والزبد.

9- الحمى: تعالج بالقنطريون (la centauree).

10- التسمم: يعالج بزيت الزيتون.

وللإشارة فإن الوصفات الطبية كانت تحضر من قبل الأطباء أنفسهم وذلك بعد الانتهاء من فحص المريض، أو من قبل الصيادلة (les apothicaires) الذين كانت لهم محلات داخل المدن، أو خيم بالمناطق الريفية، توجد فيها المواد الإستهوائية مرتبة ومصنفة بشكل محكم.

المواد الصيدلانية⁽³⁹⁾: ومن هذه المواد الصيدلانية نذكر:

الكحل	Antimoine	الأفسنتين	Absinthe	الصبر	Aloès
الأنسيون	l'anis	القنطريون	Centauree	الخبازي	mauve
البنج	jusquiam	جوزة الطيب	La muscade	الفشاع	la salsepareille
الصفيينة	La sabine	الخزامى	La lavande	الزعر	le thym
الأفيون	Opium	حامض النحل	Sulfate de cuivre	السنا	le séné
القرنفل	le girofle	الحلبة الرومية	Le fenugrec	الحلتيت	l'Assa foetide
الكافور	camphre	الرهج الأصفر	l'oprimint	الدريليس	le thapsia
الحرمل	la rue	جوزة القي	La noix vomique	الحناء	la hermé
المسك	le musc	الصمغ أو اللبان	Benjoin	النعنع	la menthe

يراجع: ANEP

المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية

العدد الأول

la cantharide	النرجس	Le romarin	حصا اللبان	camomille	البابونج
------------------	--------	------------	------------	-----------	----------

هذا إلى جانب المواد المثيرة للشهوة الجنسية (Les aphrodisiaques).

خاتمة

أمنيتنا أن يكون هذا العرض الوجيز قد حقق الغرض الذي هدف إليه، وهو استثارة النقاش حوله وتراءد ذلك إيذانا لشخصية هذا الرجل الذي ظهر تقوؤه في جميع الميادين؛ ولولا المؤامرات والحركات العصبانية ضده، وكثرة خصومه في الداخل والخارج لتحقق على يده مشروع إقامة الدولة الجزائرية الحرة المستقلة.

فبفضل بطولاته وجهاده للظلم وإنسانيته المستمدة من روح الإسلام وثقافة العصر أصبحت له مكانة في تاريخ الإنسانية بين عظماء البشر، واخترق اسمه البحار والمحيطات وأرجاء كثيرة من العالم.

المصادر:

- 1- من بين هذه الكتابات ننكر:
 - تحت الزلزال في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، لمحمد بن عبد القادر الجزائري، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي ببيروت دار البعث العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1384 - 1964.
 - نكري العاقل وتنبية الغافل، مكتبه الأمير عبد القادر في السجن بفرنسا ونشر فيه حياته.
 - سكرات الأمير عبد القادر (سيرة ذاتية كتبها في سجن أمبول سنة 1849) من تحقيق محمد الصغير بناني، ومحمود سكري محمد الصالح الجون.
 - استنسل العربي، القلوة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ط 02، الجزائر: شون وت 1982.
 - أ. جريد التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808 - 1847، الجزائر: شون وت 1983.
 - Revue Africaine n° 28, année 1884.
 - Revue Africaine n° 57, année 1913.
- 2- الأمير عبد القادر الجزائري، نكري العاقل وتنبية الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي ببيروت دار البعث العربية للتأليف والترجمة والنشر (د.ت)، ص 94.

3- L'intérêt pour la santé était très vivace chez l'Emir. La lecture du règlement des troupes régulières de cet intérêt, article 24 du 7^{me} règlement (Extrait du règlement obtenu par le général Marey d'un Agha du Sébaou: Moniteur Algérien de 1844): « Le sultan aime sa troupe et veut la rendre heureuse. Il a désigné un chirurgien qui est éclairé et a les connaissances nécessaires pour remplir les conditions de son état. Il lui a donné tous les instruments et tous les médicaments nécessaires. Les soldats malades seront transportés dans une maison désignée par notre maître et sultan, où ils trouveront les soins dus à leur position; il y aura de quoi manger, boire, se coucher et se couvrir. Il y aura des soldats qui serviront les malades, et qui nommeront cannaâ (infirmiers ou étudiants en médecine)? Ils devront être intelligents, puis avec les malades, respectueux et empressés. Ils devront étudier la médecine, et quand les chirurgiens jugeront qu'ils sont assez forts pour professer leur état, ils seront nommés par le sultan. Ils rempliront ces fonctions en garnison comme en campagne; leurs émoluments, leur nourriture et leur boisson leur seront donnés par le gouvernement. S'ils avaient en sus besoin de quelque chose, ils le recevraient du gouvernement. Le médecin-chef aura des habits de drap; il aura 12 rials par mois; il aura le lundi un quart de mouton, et un autre quart le jeudi; des pains blancs tous les matins et deux livres de biscuit; tous les soirs il touchera deux livres de farine et deux onces de beurre ou d'huile. Il faut absolument qu'il fasse son état avec conscience; alors Dieu l'aidera à rétablir le malade, et le sultan récompensera le médecin.

Mostefa Khiciti. Histoire de la médecine en Algérie. De l'antiquité à nos jours. Alger: A. 1987.

طبلاء - حكماء
(bar) عن طريق
بواسطة كلابية

(coriandre) بر
(racine de r

لنزبقيات (la
(les fumigatio

نزيدة.

بعد الانتهاء من
أخل المدن، أو خيم

Aloès
mauve
la
salsepareille
le thym
le séné
l'Assa
foetide
le thapsia
la henné
la menthe

2000, p 160-161.

4- Mostefa Khiaati, *Op cit*, p 161.

5- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص 74. أيضا:

إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 229.

6- برينو فيتان، عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشيل خوري، الطبعة الثانية، الجزائر: 2001، ص 156.

7- Mostefa Khiaati, *Op cit*, p 158.

8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الطبعة الأولى، الجزء الخامس، (1830 - 1954)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 311.

9- نفسه.

10- نفسه.

11- نفسه.

12- نفسه، ص 240. أيضا: إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 228.

13- Yvonne Turin, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale (écoles, médecines, religion) 1830-1880*, Alger: éditions Houma 2003, p 78.

14- أبو القاسم سعد الله، الجزء السابع، ص 234.

15- بليلة الحسني الجزائري، وما بداوا تبديلا (تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ووطنه وهجرته)، الطبعة الأولى، دمشق 1423 هـ، 2002 م، ص 137.

16- نفسه، ص 140.

17- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830 - 1854، الطبعة الأولى، الجزء السابع، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 234.

18- نفسه، ص 225.

19- نفسه، ص 226.

20- نفسه، ص 234.

21- أنيب حرب، التاريخ العسكري والإثاري للأمير عبد القادر الجزائري، 1808 - 1847، ط 02، الجزء 02، الجزائر: دار الرائدة للكتاب، 2004، ص 84.

22- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء السابع، ص 223.

23- Charles Henry Churchill, *La vie d'Abdelkader*, Alger: S.N.E.D 3^{ème} edit 1981, p 159.

24- Ibid, p 226.

25- *Revue Africaine* n° 28, année 1884, p 220-221.

26- بعث البركاني فرحات بن سعيد هليبا يحملها إليه بوشاريب - أحد مساعديه - تتمثل في خاتم من ذهب وسرج مطرز، ومنقوشة ثمينة وضرب له موعنا في مسجد المدينة ليليسه برنوس الخلافة على إقليم الزيان خلفا لـ ابن عزوز، فأوقعه بئس لك في الأسر، وسلمه إلى الأمير عبد القادر، فقامت بعد ثمانية أيام من إلقاء القبض عليه. (R.A. N° 28 année 1884, p 231).

27- Ibid.

28- Ibid.

29- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء الخامس، ص 500.

30- Marcel EMERIT- *L'Algérie à l'époque d'Abdelkader; présentation de René GALISSOT- Paris 2002*, p 159.

31- Ibid, p 160.

32- Yvonne Turin, *Op. Cit*, p 77.

33- *Revue Africaine*, N° 57, année 1913, p 255.

34- Yvonne Turin, *Op. Cit*, p 99.

35- عبد الرحمن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 74.

36- Mostefa Khiaati, *Op. Cit*, p 156.

37- Ibid.

38- Ibid, p 157.

39- Ibid.